حس مرهف

للأستاذ ثروت أباظه

قالوا إنه فلان بك ! ألم تسمع به ؟ فلم أكد أجيب بالنفي حتى ضج القوم بالعجب وقالوا : إنه فلان بك ! فقلت : تشرفنا . فقالوا : كيف لا تعرفه؟ فاعتذرت من جهلي الفاضح وصوبت في الرجل طرفي وصعّدته فإذا هو مترا كب اللحم مترا كم الشحم منبعج البطن صغير العينين أفطس الأنف ، له فم يوائم ضخامته يعلوه شاربان ينتهي سبالاهما عند أنفه ؛ وهكذا يرسم لك الشاربان والأنف بيضة كبيرة مكتملة ؛ فإذا نفث من فمه دخان شيشته كان من زحمتها وركام دخانها أشبه بقطار خرب

وتكلم . . فوالله ما وجدت أنفه من قوله ، فمن حديث عن غناه ، إلى نبذة عن هواه ، فإن سما فأخلاط غثة في السياسة . . وهكذا . . وهكذا جرى الحديث أو وقف على شر مايجري حديث أو يقف ، والرجل ماض في الثرثرة وأنا على موعد في هذا المكان فلا معدى لي عن السماع . إنه يدخل بلامناسبة في حديث عن إحساسه وشعوره . . إنه مرهف يعيش على أعصابه . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! هو مريض . . لا بأعصابه ، ولكن بحب المرض بأعصابه

وبعض الناس ينتابهم هذا المرض ، وهو داء خلقه الله ولم يخلق له دواء ؛ فإياك إن قلت للمريض به إنه غير مريض غضب واعترته هزة مصطنعة ، وراح يرعش يده ، ويبرق بعينيه ، ويهدر بألفاظه . . إن هذا المرض في نظر أصحابه نوع من الرفاهية .

عرفت شاعراً مجيداً قرأت له قبل أن أعرفه ، وما كدت ألقاه حتى انطلق يذكر مصائبه فعرفت أنه موسر ، وأن زوجته حبيبته وملهمة وحيه ، وعرفت أن الحياة تمد له من أسباب السعادة وتطالعه بأبهى حللها . . عرفت هذا كله من مصائبه . . فهو يحول كل جميل إلى قبيح بمنظار داكن . . إنه مريض . . ولما حاولت أن آخذ بيده إلى الطريق جذب يده بعنف ، وآلمه أني لا أحس بآلامه . ولولا أنها المقابلة الأولى لرماني بجمود العاطفة وبلادة الحس . . فصرت كلما قابلته أرثي لحاله مهما كان مسروراً حتى أصبح يستطيب لقائي ويستروح عزائي !

انتبهت من هذه الخواطر على صوت موحيها الشهير وهو مايزال يروي لي — وهو يظن أني أسمعه — كيف بلغت أعصابه من الحدة مبلغاً لا يمكن للانسان أن يصل إليه ، ولكن لم يطل فقد وافته برقية قرأها فاستجمع في ذهنه مظاهر الحزن التي يقرأ عنها ثم ألصقها على وجهه فبدا وكأنه حزين . . فم مطبق ، وجبين مقطب ، ورعشة يد غير منتظمة ! ولكني أشهد الله لم يكن ثمة خلجة من حزن على وجهه . . ماذا ؟ . . قريب له قد مات . . البقاء لله . . هكذا قلنا . . ورجاه الجالسون — وأنا معهم — أن يتصبر فصبر ، ثم أطلقت نكتة فضحك . . لم يبك الرجل ، ولم يقم ذو الشعور الرهيف إلى مصابه ، بل أقام في مجلسه يكمل الحديث عن حس رقيق في خلاله وشعور رقيق اختصه به الله ...

لم أطق صبراً فقلت له : يا سيدي . . إنك تتكلم عن أعصابك تصفها بالرفاهة والرقة حتى كدنا نعتقد أنك نسيج من أعصاب غير مغلف ؛ وها أنت ذا تقدم أعصابك في امتحان ؛ وهاهي ذي تنجح نجاحاً لا تجوزه أقوى الأعصاب نسجاً وأشدها متانة . ألم يمت لك قريب . ؟ ألم تضحك ؟ . . لا . . لا تقل إنك تعزي نفسك ، إن العزاء يكون بعد التي واللتيا ؛ هذا لتين الأعصاب ، أما لرهفها فعشرة على الأقل . . يا سيدي مل بنا عن هذا الحديث أظنني كنت ثائراً . . ولا شك أنني فضولي ولكنني على أي حال (صاحب أعصاب أيضاً)

قام الرجل من جلسته ونظر إليّ في احتقار شديد وقال : أنت أهنتني ، وليس من دأبي أن أرد الإهانة بمثلها ، قالي اللقاء .

— متانة أعصاب أيضاً !

سمعها الرجل بظهره فلم يشأ أن يطيل الحديث فانصرف

— من هو ؟

— غني يشتري أذناً صاغية لكلامه ، وحزناً لزعوم آلامه ، بأن يدفع ثمن القهوة

— قسمة ضيزى ! لقد غبنكم الرجل

— نعم أحسسنا بهذا منذ أيام ، فشكراً لك على إنقاذنا منه

— العفو !

ثروت أباظة